

## في دمياط الناهضة

بقلم الأستاذ محمد عبد الكريم

يتغنى الداعى الى الإصلاح فيما يهدف اليه سبيلين ، مثلاً طيبة يبرزها ويكتنه أسرار  
بحالها وكما لها لتحذيتها الناس وليجدوا فيها أسوة وقدوة ، وأخرى سيئة أفسدها نقص  
لا يرى رائد الخير مناصباً من تعديد نواحيه ، والكشف عن بواعثه ودواعيه .

واقعد تناولنا حاضرة البلد في تلك الأخيرة بحوث عديدة وطلعنا على القارئ بـ صور كشفت  
عن بعض نقائص العاصمة وأبانت جانباً من أسباب تأخرها . فكان حقا علينا بعد أن عرضنا  
للغث أن نلقى ضوءاً على المرضى السمين وأن نتحرى في جنبات هذا الوادى أسلم بيئاته وأقوى  
جماعته ، وقد قنشنا عن هذا الكيان الاجتماعى الأسم في طول البلاد وعرضها ومضينا الى  
مصور القطر ننقل العين بين مدن البلد الفسيح وحاضراته حتى إذا ملكتنا الحيرة رأينا الأصبغ  
يقف ثابتاً على ذلك الثغر الصغير القائم في أقصى الشمال — نغردمياط الاسم .

رأينا في دمياط البلد المثالى في القطر وليس لنا به صلة ولا تربطنا بأهله رابطة ، رأينا  
كما ذكرنا لاجمال ما فيه ، أو لسعته وتنسيق مبانيه فالبلد في هؤلاء فقيرة إن لم تكن محملة ؛  
وإنما ساقنا إلى زيارته ولم تكن قد شهدناه من قبل ساقنا اليه ما سمعناه عنه من صيت وشهرة  
وسعة — صيت حاضره الناهض ، وشهرة ماضيه المجيد وسعة بنيه العاملين المجدين .

لقد شهدت دمياط منذ فجر التاريخ شهرة لا تعدلها شهرة ، ولقيت أحداثاً لم تمر على بلد  
من بلاد القطر قبلها — وعندى أن ما انصف به أهل دمياط من صبر وقوة على احتمال العمل  
المضنى ، ومجالدته الحياة في عزم وثبات إنما يرجع في أكثره إلى تلك القسوة التى عجبت أعواد  
بنيها من القدم ، قسوة الأحداث التى جعلت منها هدفاً دائماً لغارات المغيرين وقسوة الطبيعة  
التي بخلت عليها فلم تؤثرها بغير موارد قليلة فعمد أهلها إلى رؤوسهم وسواعدهم — يعاونها  
في الليل فتدر عليهم بالكد والجد الخير الكثير والرزق الوفير .

تقول عاشت دمياط منذ فجر التاريخ هدفاً للغزو والعدوان غزاها العرب في الفتح الإسلامى  
بقيادة المقداد بن الأسود قائد عمرو بن العاص فأسلمها " الهاموك " حاكمها من قبل المقدوقس  
بعد قتال وحصار — واعتدى الروم عليها ونزلوا بها ثلاث مرات الأولى عام ٩٠ هـ هجرية أبان خلافة

الوليد بن عبد الملك والأخرى في عهد هشام عام ١٢١ هـ وقد أعملوا السيوف في رقاب أهلها لقاء ما اتحنوا من مقاومة بأسلة والثالثة أبان الفتنة بين الأمين والمأمون. على أن شرما أحاق بدمياط هو ما لقيت من الصليبيين - فاطمًا غزًا هؤلأ ذلك الشفر يجيوشهم ومرأ كههم يقهرونه بارة ويقهروهم أطوارا - حاجم الصليبيون دمياط بمعونة ملك الروم في مائة وخمسين مريكًا من ودا بالعناد والمؤن وخطوا رحالم يجوار المدينة فأنفذ اليهم صلاح الدين جيشًا بقيادة ابن أخيه تقي الدين وخاله شهاب الدين فاتجه الصليبيون إلى النيل يحاولون عبوره غير أنهم اصطدموا بالحاجز الحديدى وهو سلسلة عظيمة كانت تمتد في عرض الشاطئ وقد ثبتت في دمياط من جانب وفى البرج الكبير من جانب آخر وهكذا تمكن رجال صلاح الدين من تضيق الخناق على المعتدين حتى اضطروهم إلى التسليم والصلح بشروط مشرفة للبلد. وفى موقعة أخرى من المواقع التى يسجلها التاريخ لأبناء دمياط بالتفخر أشبأ كههم والصليبيين حين هاجوهم فى ربيع عام ٦١٥ هـ فى سبعين ألف فارس وأربعمائة ألف راجل وحاصروا برج حاميته، حتى إذا كسر الجسر الذى يصل البرج بالمدينة، ضيق الصليبيون الخناق على البرج ومازالوا به حتى استولوا عليه وقتلوا حاميته، ثم اتجهوا بجحافلهم إلى البلد الضعيف بعزلة من فيه، القوى بإيمان بذه - وقف أبناء دمياط وقفة رجل واحد وكادوا بحسن دفاعهم أن يظهروا على عدوهم لولا مدد كبير بعث به ملوك أوروبا من النمسا وبيزا وجنوى والبندقية وفرنسا وانجلترا لتصرة حرب "الصليب المقدس" وقد حاصرت هذه القوات الكبيرة البلد حتى نفذت أقوات الأهلين ونفشت المجاعة والوباء فيهم وامتلات البيوت والطرقات بحيث لا تجد من يعنى بدفنها لأن من بقى من السكان كانوا فى شغل بالدفاع تارة يحاولون الاتصال بجيش الملك الكامل المنعزل عن المدينة اما بايقاد نيران رمزية لاطلاعه حالم أو باستلام الرسائل والمؤن فى بطون الجمال التى كان يجرها جنود الملك ويلقون بها فى النيل ليحملها اليم إلى شاطئ دمياط وطورا يناوشون البلاد المنيرة حتى إذا غلبوا أخيرا على أمرهم دخل الصليبيون البلد فأتوا فيها من انفظاع ما يملا فى سجل التاريخ صحيفة قائمة اذ قتلوا كل الرجال واستباحوا حرمة النساء وأحالوا مسجد دمياط المعروف بمسجد أبى المعاطى كنيسة حملت اسم القديسة مريم على أن بقاءهم بالبلد لم يدم غير عام واحد وعشرة شهور إذ تمكن الملك الكامل بعد جهاد طويل من استرداد المدينة مستعينا بمياه الفيضان التى أطلقها فعمرت مواقع الأعداء وعزلتهم مما مكنته من التغلب عليهم .

وفى إبان الثورة العرابية أبت دمياط بزعامة عبد العال أبى حشيش متقدم الجند فيها إلا أن تكون آخر من يسلم من بلاد الساحل إذ ظلت طابقتها تقاوم حتى أرغمت على التسليم .

ولقد لقيت دمياط من عناية الأسرة الملكية الكريمة الشيء الكثير فبنى عهد عزيز مصر مجد على رمت القلاع وأنشئت بها مدرسة حربية ومصنع للقطن وزودت مضاربا بالآلات الحديثة .

وفي عام ١٢٣٣ هـ جعلت محافظة وإبان حكم اسماعيل أوصت بالسكة الحديد عند قرية السنانية وأقيم عليها مجلس بلدى .

كذلك أولها المغفور له الملك فؤاد الأول عناية كبيرة إذ بنى بها الجسر على النيل واستخدم فى بنائه بعض أجزاء كوبرى امبابه القديم وافتتحت بها المدرسة الصناعية وأنشئت بها مدرسة ثانوية ومركز إسعاف ومستوصف وأقيم بناء المعهد الدينى المتصل بمسجد البحر وغير ذلك من مآثر لا زالت تتوالى على البلد .

### حاضر دمياط :

تعتبر دمياط أفضل مدن القطر كافة اذا قيست بسعتها وبتعداد أهلها وحسبك أن تعلم أن هذا البلد الذى لا تشغل رقعته أكثر من خمسمائة فدان والذى لا يتجاوز تعداد سكانه اثنين وأربعين ألفا يحرز قصب السبق ويبلغ المرتبة الأولى فى الانتاج الصناعى بين مدن القطر كله فدمياط كما انضح لنا من الرجوع إلى الاحصاءات والتقارير الرسمية :

( أولا ) أولى مدن القطر فى صناعة الألبان ففيها ثلاثون معملا تنتج كل أنواع الجبن الأبيض وغير الأبيض وقد أرتنا الحرب الحاضرة كيف تمكن الدمياطى من أن يصنع على قلة عدده وضعف استعداده كافة ما كان يرد لنا من أصناف الجبن "الرومى والشستر والنامنك وغيرها" وهى لا تغذى القطر وحده ، بل تتعدى ذلك إلى تصدير جانب إلى بلدان الشرق العربى المجاورة .

( ثانيا ) هى الأولى كذلك والمصدر الرئيسى لمصنوعات الجلود وخاصة الأحذية التى تملأ سوق القطر وتفيض على الأقطار المجاورة .

( ثالثا ) وهى الأولى أيضا فى صناعة الأثاث الذى يمتاز بجاله ودقة صنعه مع قلة تكاليفه .

( رابعا ) وهى تحتفظ بأوليتها كذلك فى صناعة الحرير وفيها مصنع شركة مصر للحرير .

( خامسا ) وتكاد دمياط تبلغ المكان الأول وتفوق رشيد فى صناعة ضرب الأرز إذ لديها اليوم خمسة وعشرون مضربا من المضارب الحديثة .

ومحتضن دمياط مصيف رأس البر الذي بلغ بفضل عناية بلدية دمياط أسمى مكان بين مصايف القطر كافة وهو يتغذى من دمياط ويتولى العمل به وإدارة فسادقه مصريون أكفاء من أبناء دمياط ليس فيهم سوى أجنبي واحد .

ويتمار الدمياطي بظاهرتين هامتين : الأولى صلاحه ومحاظته على دينه وإنك لتلمس هذه الظاهرة واضحة حين ينادى للصلاة من يوم الجمعة إذ يذر أصحابها البيع ويسعون إلى ذكر الله .

والدمياطي على تمسكه بدينه أكثر المواطنين تمشياً مع المدنية الصحيحة فهندامه ، وبيته ومعاملاته مطبوعة كلها بطابع أوربي وبهذا عرف هؤلاء الناس كيف يجمعون بين تربية روح الاسلام الصحيحة وروح الغرب الناهضة — والعامل الدمياطي أكثر عمال القطر جلداً وأشداهم احتمالاً وأبرعهم عملاً وذكاءً وهو مع بساطة أجره في غنى دائم عن الناس وليسره ثلاثة أسباب :

انصرافه إلى العمل بكل قوته واشتغاله ساعات أكثر من غيره وتبين هذه الظاهرة واضحة إذا قارنا عمال الأحذية في دمياط بغيرهم فبينما يأخذ العامل الدمياطي أجراً لصناعة الزوج نصف ما يتقاضاه العامل في مصر فإن كسب الدمياطي أكثر لأنه يذبح في اليوم أكثر من ضعف نظيره في مصر .

وطبعي أن انصراف الرجل إلى العمل والسعي يصرفه عن اللهو والفساد لهذا خلت دمياط من أسبابها .

وحسن تدبير زوجه لشؤون بيته وهذا ما سنبينه عند الكلام عن سيدات دمياط بعد .

وككل جماعة ناهضة يمتاز أهل دمياط بالميل إلى التأزر والتعاون فأرباب المهن الواحدة يلتفون حول نقابة أو رابطة ويرى نوابهم ورؤساء الأسرات الكبيرة بينهم في مهونة مواطنيهم والسعي لقضاء حوائجهم واجباً وفرضاً — ولقد دخلت بعض المقاهي فلاحظت صورة للرحوم عبد الحليم بك العلابي معائمة على الجدار وإذا سألت صاحبي سر الاهتمام بهذه الصورة قال هذا كل ما يمكنه كل دمياطي لهذا المواطن الكريم ومضى محدثي يذكر لي بعض آثار العلابي بك لأهل بلده مما نذكره مثلاً للتضامن والتكافل بين الكبار والصغار ذلك التكافل الذي إذا تحقق في كل بلد ما شكوا أحد ضيقاً ولا حلت بجماعة مسغبة ... قال صاحبي :

منذ بضع سنوات اندلعت النار في فندق كورتيل الكبير برأس البر وكان ملكاً لأحد الدمياطيين هو المرحوم مرسى سرحان — طير النبأ إلى عبد الحليم بك ليلاً فلم يزم ونهض لفوره يمر على الأعيان والتجار يوقظهم ويكلفهم بفتح مخازنهم يجمع أخشاباً وقماشاً ومالا

ويصحب عمله بتبرع سخى من جيبه وهكذا لم يمض على الحادث يومان أو ثلاثة حتى رأى صاحب الفندق قدّمه يعد إليه جديداً كامل المعدات — ... وعاد محدثي يعدد إلى بعض ما أثر الرجل على بلده فذكر ما كان من سعيه وتوفيقه في بعض السنين إلى استصدار مرسوم بإعفاء مؤقت لأبناء دمياط من الخدمة العسكرية بسبب حاجة الصناعة حينذاك إلى الأيدي العاملة — ذلك إلى جهوده في تحسين البلد وإقامة المؤسسات الكثيرة بها .

وتقوم دمياط على أسرات بينها أسرات عريقة كأسرة العلايل واللوزي والجمال والحامصي وكسبية ومشرفة والأسمر وغيرها — وقد أنجبت دمياط الكثيرين من رجالات البلد المبرزين من علماء وأدباء ورجال أعمال وهي في هذا عريقة مجيدة ولا غرو فصحة التاريخ مائة بالجهابذة من أبناء هذا البلد نذكر منهم جلال بن شاش شيخ المالكية وصاحب الجواهر الثمينة في المذهب وقد راح هذا العالم الكبير ضحية جهاده بأن حصار الصليبين لبلده عام ٦١٦ هـ ومنهم الشيخ عبد السلام الدمياطي المعروف بابن الخراط — والشيخ خليل البهوتي ومحمد بن يوسف واللقيمي صاحب "المداينة الاجوانية" و"المقامة الرضوانية" .

ومساجد دمياط كثيرة بسبب تدين القوم من أعمها المتبولي والشيخ أبي العباس ومعين الدين وبها أيضاً الشيخين الشهيرين شطا وأبي المعاطي اللذان يحتفل بمولدهما في شعبان من كل عام .

والشيخ شطا هو ابن الهاموك حاكم دمياط من قبل المقوقس وقد أسلم وانخرط في سلك المجاهدين وكانت لمهنته أثر في تسهيل دخول العرب دمياط — أما الشيخ أبو المعاطي فهو عالم فاضل وهو معروف بين المشتغلين بعلوم الدين كتصوّف معتدل كما أشار إلى ذلك الدكتور زكي مبارك في كتابه "التصوف الاسلامي" — قدم أبو المعاطي — أو — "فاتح بن عثمان الأسمر التكروري" من مراکش إلى دمياط في أوائل القرن السابع البحري وسقى الماء في الأسواق وأقام بالمسجد الذي تنازعه المسلمون والصليبيون مراراً وتولى أمره وكان يختلف عن نظرائه من المشايخ فلم يعط عهداً ولم يدع مشيخة — كان يتجنب الإشارة إلى نفسه فإذا ذكر "أنا" سارع إلى الاستعاذة بالله — وكان زاهداً لما في الناس ومن أقواله المأثورة "الفقير كالغزاة البكر إذا سال زالت بكارته" ولهذا مات الرجل رغم ما أحيط به من جلال . مات بعدما وترك ولدين لم يخاف لهما غير دين يربو على الألفي دينار — ويعتبر أبو المعاطي أهم مساجد دمياط وهو ثاني مساجد القطر قدما بعد جامع عمرو — ولهض السذج من الدمياطيين اعتقادات خرافية في كرامات الرجل فني مسجده عمودان متقاربان يعتقد الإسطاء أن من يتمكن من المرور بينهما يغفر له .

## الدمياطية كربة بيت :

إذا كانت المعرنة النامة بشؤون البيت ، والعناية بالأطفال ، والتعاون مع الزوج في طاعة وهدوء وإبتسام ، والترام النظافة البالغة في المسكن والملبس ، ومراعاة التدبير في النفقات ، هي سجايا الزوجة الصالحة ، فالدمياطية في هذا لا تجارى ، بل لا تكون مغالين إذ قلنا إنها الزوجة المثالية ، علمنى هذا ما سمعته ثم ما لمستته بنفسى في البيوت التى دخلتها فى جولاتى هذه بدمياط — أما معرفة شؤون البيت وتدبير أمره ، فتصبت سيدات دمياط فى هذا فزراع بعيد ، فهى تعتمد على نفسها فى كل شئ ، تطهى ، وتعد الخبز ، وتخييط ثيابها وثياب زوجها وأولادها ، ومنهن من يظلمن الأبواب والجدران بأيديهن ، وتتدبر الدمياطية القليل بتدبير بالغ ، وتعمل للأيام دواما حسابها ، وليس أدل على ذلك من أن أعلى نسبة للدخارين فى صندوق التوفير هى فى دمياط ، وهى تعاون زوجها بكل أناملها ، وتستغل فراغ أولادها فى معاومتها ، ولقد شاهدنا بمصيف رأس البر كثيرا من تلاميذ المدارس يبعون المصيفين مغارش ومناديل وملابس داخلية من صنع أمهاتهم — أما النظافة فهى ميزة طبعت بها بيوت دمياط ، فالدمياطية لا تكفى بالنظافة المعتادة ، بل تعتمد إلى التفتن فى تنسيق الأثاث وترتيبه ، وأكبر ظنى أن ذلك يرجع إلى قلة نرجسها وعدم اختلاطها بغيرها ، وانصرافها عن التردد على المتاجر ، أو غشيان دور الخيالة والملاهى التى لا وجود لها بدمياط إلا خيالة واحدة صغيرة — ولقد استضافنى ليلة صديق دمياطى فى داره هناك فأدهشنى حين تجاوزت باب الدار تلك النظافة البالغة وذلك النظام البديع الذى عليه البيت ، فالسلم والمجرات والأثاث والفرش كلها تبرى حتى لشكاد تحسبها جديدة لفرط نظافتها — شاهدت فى غرفة الاستقبال أاثانا فى طراز يابانى ولوحات فنية يابانية ولكن أدهشنى إذ علمت أن هذا الأثاث جىء به من عند النجار خشبا أبيض وأن الطلاء والنميش الفنى قد تم كله بيد زوجه التى مهرت كل قطعة بامضاءها — والدمياطيات جميلات بوجه عام بيض البشرة فى سمرة خفيفة ولجمالهن وصحة أجسامهن أسباب بعضها يرجع إلى مناخ البلد والبرص إلى حسن التغذية التى قوامها السمك والأرز أو إلى انحدار الكثير من الأسرات من أهل سورى .

## طباع الدمياطيين :

ويمتاز أهل دمياط بالميل إلى المرح لهم كما تصفهم الموسوعة الفرنسية الكبرى *La population est generalement aise* ويفتر نثر الدمياطية عن ابتسامه دائمة على أنهم كشعب مشغول بالتجارة أميل أهل القطر إلى الحرص حرصا يخرج أحيانا ببعضهم عن حد المألوف حتى إن بعض الأسرات تضع مسألة الصداق ومقداره أساسا لقبول الزوج

وربما رفض الزوج على مزاياه لمجرد تقدمه بالصدقات القليل، وتغلب هذه الروح التجارية على الكثيرين إلى حد قد يدهش له الغرباء عن دمياط، على أن الصلات الزوجية بدمياط أقوى أشد منها في أى بلد آخر، وحسبنا للتدليل على استقرار الحياة الزوجية هناك :

أن دمياط أقل من التطر طلاقا كما أنها أقلها نسبة في عدد الجرائم .

وأنها البلد الوحيد الذى لا يحوى حانة ولا يابى مرابيا .

وليس للأجنبي مكان ما بدمياط .

ودمياط فوق ذلك هى من المدن القليلة التى ليس فيها من القدم دعارة رسمية ولا غير رسمية .  
ويكاد كل دمياطى أن يكون مالكا لبيت - وملكية البيت فى دمياط هى أول ما يتجه إليه فكر الشاب قبل أن يبحث عن الزوجة ولهذا نرى سن الزواج فى دمياط متأخرا والاقبال عليه قليل - وخاصة أنهم لا يميلون إلى تزويج بناتهم من غير أبناء دمياط .

ما تفتقر إليه دمياط :

كانت دمياط إلى سبعين سنة خلت من أهم ثغور مصر البحرية وحسبنا أن نرجع فى هذا إلى المقارنة التى أوردتها على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية وإلى ما كتبه الأستاذ عبد شمراره فى كتابه "تاريخ ما أحمله التاريخ" وهو كتاب قيم رجعنا إليه فى بحثنا واعتمدنا على بعض ما ذكر فيه - وفيما يلى بيان الأول عدد الكتبه الذين يشرفون على الموانى والآخرون عن عند السفن وحوادثها فى سنة ١٨٧١

الميناء	عدد الكتبه	عدد العمال	مرتباتهم
رشيد	٣	٢٠	١٠٠٠ ريال
بولاق	٦	٤٠	» ٢٤٠٠
الاسكندرية	١٢	٦٠	» ٤٠٠٠
دمياط	٨	٥٠	» ٤٠٠٠

وكان الوارد من البضائع فى تلك السنة كما يلى :

السويس	٥٥٤ سفينة	الحمولة بالطن	٣٢١
أبو قير	» ٥٣٨	»	٤١٢
رشيد	» ٩٠٩	»	٩٠٥
دمياط	» ٧٠٧	»	٤٠٩١٨

مما تقدم نرى أن دمياط كانت في مقدمة موانئ القطر أهمية ولكن هذه الأهمية أخذت تضمحل لأسباب منها :

إنشاء ميناء بورسعيد التي أعدت بنظام حديث جعلها من أهم موانئ البحر الأبيض .  
وتراكم طعمى النيل على مدخل الميناء مما سد مدخل البوغاز وقد ضاعف هذا ما كان السلطان الظاهر بيبرس قد ألقاه من أحجار قصد بالقائها منع سفن العدو من الاقتراب من البلد هذا الى غرق الأسطول التركى أبان الحملة الفرنسية مما عجزت الكراكات عن رفعه . وإنشاء الخط الحديدي الذي أفتقد دمياط مكانها كحلقة اتصال بالشام .

ولقد باتت مشكلة إعادة مجرى دمياط كميناء يعرض مشكلة تتضارب الآراء فى حلها فبينما يتنادى المتصرون لاعداد الميناء بوجوب المبادرة بفتح البوغاز وتطهيره وإعداد أرصفة للشحن ، إذ أن الشاطئ بجائته الحاضرة لا يسمح برسو السفن التي يتجاوز عمق غاطسها ستة أقدام يجهر البعض بأن اتفاق مليون من الجنهيات فى إنشاء الحواجز ضياع للمال لما يتطلبه التطهير من نفقة دائمة وعندنا أن خير ما يعمل لتسهيل التصدير والإستيراد هو إتمام الطريق الذى يصل دمياط ببورسعيد وهذا تقوم الأخيرة مقام الأولى فى استلام وإصدار البضائع وتمكن الأولى من مضاعفة إنتاجها لما تفيد به من سهولة الإصدار والإستيراد .

ثم هناك مشكلة التجارى العامة فالبلد كما علمنا لا يجارى فيها ونحن نرجو أن يعنى ولاية الأمور بهذه المشكلة كذلك ينقص دمياط تنظيم حديث ، ذلك بأن أكثر بيوتها القديمة تقوم فى حواري ضيقة لا تتخللها الشمس ولا الهواء وفى هذا ضرر على طبقة تفضى يومها عاملة بين جدران رطبة لتعود الى بيت غير صحي .

ولعل أكبر ما يستلقت نظر زائر دمياط كثرة البيوت المهتمة والحربات حتى فى المواقع المتنازة المطللة على النيل بسبب إهمال الأوقاف المالكة لها على أن هذه المسألة التي لاحظها قبلنا معالى الأستاذ عبد الحميد بك عبد الحق قد وضعت موضع الاهتمام بعد توليه وزارة الأوقاف .

هذه هى دمياط وتلك صور لما رأيناه فيها بعد دراسته تقدمها للقراء لما فى خلق أهلها من أسوة وعظما ، ونكشف كذلك أمرها لمن بيدهم الحل والعقد ليعيروا هذا البلد الناهض ما هو جدير به من رعاية وعناية بما يزيد فى تقدمه ويعيد اليه مجده الغابر التليد .

محمد عبد الكريم